حرب استنزاف بمعطيات مختلفة النصر فيها للصمود

سمير جبور*

■ ان الحرب الدائرة الآن على الارض اللبنانية التي بادرت اليها اسرائيل ضد حزب الله بحجة الرد على اسر جنديين من جنودها سرعان ما تحولت الى حرب استنزاف تدور بمعطيات استراتيجية وميدانية تختلف عن المعطيات التي كانت قائمة خلال حرب الاستنزاف الاولى على جبهة قناة السويس التي بدأت في اواخر سنة 1968 وتوقفت في شهر آب 1970. لقد بادر الى تلك الحرب الرئيس عبد الناصر الذي انكب على دراسة العبر من هزيمة حزيران 1967 من أجل اعادة تشكيل معادلة الامن القومي المصرية بواسطة الافادة من المزايا الاستراتيجية التي كانت تتمتع بها مصر بعد الهزيمة، وسبر أغوار عيوب «معادلة الامن القومي الاسرائيلية.

ويضيق المجال هنا للتوقف عند جميع العبر التي استخلصها عبد الناصر. ولعل ابرزها هو حرمان اسرائيل من مزايا الحرب المتحركة التي تعتمد على قوة النيران بدعم التفوق واللجوء الى الحرب الساكنة. اي اجبار اسرائيل على خوض «حرب مواقع». وكانت اسرائيل قد أقامت على امتداد قناة السويس خط تحصينات اسمته «خط بارليف». أشبه بخط «ماجينو» الذي «لايقهر» والذي اقامته فرنسا على حدودها مع المانيا لمواجهة الجيش النازي خلال الحرب العالمية الثانية. وقد نصب الجيش المصري على امتداد القناة وفي مواجهة خط بارليف شبكة من المدافع الثقيلة كانت تدك المواقع الاسرائيلية الثابتة ليلا نهارا وكان الجيش الاسرائيلي يتكبد خلالها خسائرعسكرية يومية بين قتيل وجريح. واستمر هذ النزف العسكري والاقتصادي مدة طويلة من الزمن لم يعتد عليها الجيش الاسرائيلي الذي كانت الحروب التي شنها على الجيوش العربية مجرد نزهات بالنسبة اليه.

ولعل الاثر الاشد وطأة التي احدثتها حرب الاستنزاف في المجتمع الاسرائيلي في ذلك الحين ـ علاوة على تأثير الخسائر البشرية ولاقتصادية هو الاثر المعنوي. فلم يكد يمض عام على انتصار الجيش الاسرائيلي الخاطف والساحق على ثلاثة جيوش عربية التي شلت خلال ساعات، وجد المجتمع الاسرائيلي نفسه أمام انكسار بطيء كاد يقضي على نشوة انجازات الحرب الخاطفة ليحطم اسطورة «الجيش الذي لا يقهر». وكلما كانت اسرائيل تتكبد خسائر بشرية من دون ان تلوح في الافق نهاية وشيكة لتلك الحرب، كان التململ يزداد بين جميع طبقات المجتمع الاسرائيلي، اذ ترددت في الشارع الاسرائيلي اسئلة محبطة مثل: «ماذا ستكون النهاية؟». «حتى متى؟» و«من أجل ماذا؟».

لقد توقفت حرب الاستنزاف تلك وهي في اوج نجاحها عندما تسلمت مصر صواريخ سام الروسية المتطورة التي كادت تشل سلاح الجو الاسرائيلي. وذلك بعد أن تدخلت الولايات المتحدة لانقاذ اسرائيل بعد أن وافق عبد الناصرعلى مشروع روجرز الخادع.

والمواجهة الدائرة الآن بين اسرائيل وحزب الله هي استنزاف اشد وطأة من الحرب السابقة بالنسبة لحجم الخسائر البشرية ولا سيما المدنية. فطابع الحرب هذه المرة يتمثل بحرب عصابات وليست حرب مواقع تستخدم فيها اسرائيل جميع انواع الاسلحة من دون تحقيق انجازات ميدانية مهمة على الارض. فهذه المواجهة تستنزف الالة العسكرية الاسرائيلية على مستويين : الاول ـ امتداد أمد المواجهة العسكرية من دون ان يتمكن الجيش الاسرائيلي من تحقيق انجازات عسكرية مباشرة لان طابع حرب العصابات يحرمه من الافادة من جميع اسلحته ولا سيما سلاح الطيران. فبدلا من ذلك لجأ الى تدمير البنية التحتية المدنية اللبنانية. فبدلا من تدمير قوة حزب الله العسكرية أخذ يستخدم سلاح الجو من دون تمييز لقتل اكبر عدد ممكن من المدنيين وارتكاب مذابح رهيبة مثل مذبحة قانا أملا في تشكيل ضغط على حزب الله واختصار أمد الحرب. وهذه ما جعل زئيف شيف المعلق الاسرائيلي العسكري المعروف يقول ان «الادارة الاستراتيجية لحرب الاستنزاف هذه كانت فاشلة حتى الآن، وابرز دليلين على ذلك هما أن القوات البرية التابعة للجيش الاسرائيلي لم تساهم بالفعل في وقف حرب الاستنزاف، وأن حزب الله واصل حرب الاستنزاف القاسية ضد مواطني اسرائيل ومدنها حتى اللحظة الاخيرة. وليس من الواضح اية قوة دولية ستقام في لبنان» (موقع هآرتس الالكتروني 2006/08/01) وكتب شيف قبل ذلك (المصدر نفسه 2006/07/26). أن «حرب الاستنزاف التي يخوضها حزب الله ضد اسرائيل مستمرة من دون هوادة، وليس هناك تراجع في الهجمات ضد اهداف مدنية اسرائيلية. اذا ما واصل حزب الله في امطار (اسرائيل) بـ 80 الى 100 صاروخ في اليوم، يستنتج من ذلك انه لم يتم التخفيف من حدة حرب الاستنزاف».

وهذا يعني انه على الرغم من مرور نحو شهر لم تتمكن اسرائيل من الاعلان عن انجاز عسكري حاسم، ولم تحقق الاهداف المعلنة كاملة وهي القضاء على نظام الصواريخ التابع لحزب الله قبل ان تتحول المواجهة الى حرب استنزاف لايتحملها المجتمع الاسرائيلي. فقد حذر يوئيل ماركوس المعلق السياسي لجريدة «هآرتس» (2006/07) من لجوء حزب الله الى جر اسرائيل الى حرب استنزاف بقوله «من المحظور جعل المواجهة مع حزب الله تتدهور الى حرب استنزاف. ولا يجوز توسيعها الى ما وراء اهدافها ولا يجوز وضع الجمهور الاسرائيلي اما اختبار عسير جدا، خوفا من ان تتحطم الجبهة الداخلية امام الحكومة».

وكلما طال امد الحرب، كلما دفعت اسرائيل ثمنا باهظا على جميع المستويات. وكلما أمعنت في تدمير لبنان وقتل المدنيين من دون مبرر وارتكاب المجازر البشرية كلما تعرت أهداف اسرائيل الحقيقية من وراء عدوانها هذا مما يجعلها عرضة لنقمة الرأي العام العالمي وامتداد الغليان بين الشعوب العربية.

الثاني ـ على مستوى ترميم قوة الردع الاسرائيلية التي انتكست ثلاث مرات خلال العقود الثلاثة الماضية (حرب الاستنزاف سنة 1970 وحرب 1973 وانسحاب اسرائيل من لبنان سنة 2000). فمن خلال ستة عقود من تاريخ النزاع العربي ـ الاسرائيلي فان اسرائيل تستند في تنفيذ برنامجها الاستراتيجي في المنطقة العربية على القوة العسكرية وتوفير القدرة على الردع. فاسرائيل لا تستطيع أن تسمح باي قضم في قوتها الرادعة. ولذا اعتبر بعض المعلقين الاسرائيليين ان احد الاهداف التي توختها اسرائيل من وراء هذه الحرب هو رد الاعتبار الى «استراتيجية الردع» الاسرائيلية «الويل لنا، اذا كانت الالوية التي تقاتل نحو الف من مقاتلي العدو ـ بوسائل لايملكها على الاطلاق : سلاح جو، مدفعية دقيقة التصويب ودروع ووسائل تكنولوجية خاصة ـ غير قادرة على تحقيق هذا الردع». وذهب البعض الاخر الى القول ان اسرائيل اخفقت في رد الاعتبار الى قوتها الرادعة في المواجهة العسكرية مع مقاتلي حزب الله اذ أن تدمير لبنان وبنيته التحتية، وقتل وتشريد مئات الالاف من سكانه لا يساهمان في ترميم معادلة الردع الاسرائيلية لان لبنان الدولة لم يهاجم اسرائيل وهو ليس الجهة المستهدفة لردعه.

استنزاف الجبهة الداخلية

لعل ابرز سمات استنزاف الجبهة الداخلية هو مواجهة سكان اسرائيل تجربة لم يسبق لها مثيل في تاريخ النزاع، لان هؤلاء السكان اعتادوا على الاطمئنان الى سلامة الجبهة الداخلية. ولهذا السبب حظيت الحكومة الاسرائيلية بتأييد الاكثرية الساحقة من الاسرائيليين على اعتبار أن الجيش الاسرائيلي سيسحق حزب الله في ايام ان لم يكن في ساعات. ولكن مع استمرار المعارك وجد الجمهور الاسرائيلي نفسه أمام معطيات مختلفة. فلأول مرة تمطر اسرائيل شمالها ووسطها بصواريخ وضعت أكثر من مليون اسرائيلي في الملاجيء لمدة تقترب من الشهر من دون ان تلوح في الافق امكانية الحسم. فقد ايقن الاسرائيليون بأن هذه الحرب غير متكافئة بالنسبة الى حجم النيران لصالح اسرائيل وغير متكافئة بالنسبة الى النتائج العسكرية لصالح حزب الله. ناهيك عن الخسائر الاقتصادية، اذ أن اسرائيل اصيبت بالشلل العام. فالسياحة ضربت وعجلة الانتاج اصيبت بالشلل تقريبا. ناهيك ان هذه الحرب تعيد الى أذهان الاسرائيليين تجربة حرب لبنان القاسية سنة 1982 وغروز الجيش الاسرائيلي في «الوحل اللبناني» لمدة تزيد عن 18 سنة واجه خلالها نزفا بشريا اجبره على الانسحاب من الاراضي اللبنانية في سنة ,2000 وعندما دخلت الحرب اسبوعها الرابع من دون حسم بدأ التململ داخل المجتمع الاسرائيلي يزداد اذ ان البعض حذر من «انهيار الجبهة الداخلية أمام الحكومة». واخذنا نشاهد مؤخرا مظاهرات في تل ابيب تطالب بوقف الحرب. كما اخذت تتردد اسئلة شبيهة بتلك التي ترددت خلال حرب الاستنزاف الاولى «ماذا يجري؟» و«حتى متى؟». ونقل يوئيل ماركوس (موقع هآرتس 20/08/4) «تساؤلات تتردد داخل المجتمع الاسرائيلي «هل تساوي نتائج هذه الحملة التي بادرت اليها الحكومة ثمن تحويل كريات شمونة الى ساحة موقف سيارات؟ الجليل الجميل يحترق؟ مليون ونصف مليون يصبحون لاجئين في الملاجيء في بلدهم»؟

من المنتصر في هذه الحرب؟

لايزال من المبكر الجزم لمن سيكون النصر النهائي لهذه الحرب. فلا شك ان الانتصار فيها للصامدين. واذا جاز القول ان الانتصار هو مرحلي، ففي هذه المرحلة فان حزب الله سجل عدة انتصارات اهمها صموده لمدة طويلة نسبيا في مواجهة اعتى آلة عسكرية في العالم تدعمها احدث اسلحة الحلف الاطلسي، محطما بذلك اسطورة الجيش الذي لا يقهر، واضعا حدا لترف حروب اسرائيل. ومن تجليات مكاسب حزب الله هو رفع معنويات الشعوب العربية التي تواجه محنة الحرب على العراق والتهديد المستمر بتغيير خريطة الشرق الاوسط. وبالتالي سيخرج من هذه المواجهة أكثر قوة وسوف يتبوأ زعيمه حسن نصرالله منزلة القائد العربي الموثوق.

واما بالنسبة الى اسرائيل فانها خسرت الحرب على اكثر من صعيد. فقد خسرت الحرب على الصعيد الاخلاقي عندما اخذت تدمر البنية التحتية اللبنانية المدنية وتركتب افظع المجازر البشرية. وخسرت الحرب على صعيد الردع ولا سيما بالنسبة الى المقاومة العربية في العراق ولبنان وفلسطين. وكذلك بالنسبة الى الجبهة الداخلية حيث ايقن سكان اسرائيل ان جيشهم «الاسطوري» عجز عن حمايتهم هذه المرة ايضا. كما ان اسرائيل بذرت بأعمالها هذه بذور الكراهية والانتقام لاجيال قادمة.

ولكن النصر النهائي في هذه الحرب يعتمد على تدخل الدول العظمى التي هبت لانقاذ اسرائيل، ساعية الى تنفيذ قرار لصالحها يثبت استمرار وجودها في الاراضي اللبنانية من اجل تكريس احتلالها لقسم من الجنوب ومصادرة مياهه. واذا تم ذلك تكون اسرائيل قد حققت هدفها الاستراتيجي من هذه الحرب في اطار تغيير خريطة الشرق الاوسط. ولكن اذا اجبرت على الانسحاب من الاراضي اللبنانية نهائيا واعادة مزارع شبعا تكون اسرائيل هي التي خسرت حرب الاستنزاف بالمطلق، ويكون حزب الله الرابح الاكبر ولو على حساب تدمير لبنان الذي هو جزء دائم من الاستراتيجية الاسرائيلية تجاه هذا البلد لان اسرائيل كانت ستدمره في كل حال كما اثبتت خلال اجتياحها للبنان سنة 1982.

* كاتب من فلسطين يقيم في كندا

مقامات في نعي المشروع الديمقراطي العربي

عادل الحامدي*

■ لم تكد تطوى صفحات مرحلة ما بعد الحرب الباردة حتى بات العالم الجديد الذي لم تتشكل تضاريسه السياسية بعد مترقبا ما ستأتي به الأيام الأمريكية إلى منطقة الشرق الأوسط ممرغ الحضارات وبالوعة المدنيات التي لا تستأنس بوافد ولا تنام على ضيم ولو كان من سابع الامبراطوريات التي يخيل إلي أنها استعجلت قطف ثمار السيادة الكونية واستبدت بالرأي، والعاجز من لا يستبد خاصة من غير العرب الذين تحولوا منذ قرون من الفعل إلى المفعول به حتى إشعار آخر.

لم يمر أكثر من ثلاثة أعوام على تربع الرئيس الأمريكي على أريكة الحكم البيضاوي حتى استيقظنا ذات ليلة على مشهد عزت رؤيته منذ قرون حيث تربع هارون بريمر على سرير الرشيد على مسمع من التاريخ ومشهد من المؤرخين. منذ ذلك التاريخ والمبشرون الجدد يهللون ويكبرون لهذا الوليد الجديد الذي يتكلم الديمقراطية وهو في المهد العراقي صبي، وكالوا له من الأعمال نثرا وشعرا غزيرا حتى خلناه النبي اللاكذب عيسى بن مريم. لكن حصيلة السنوات الأربع التي آلت إليها تجربة البعث الديمقراطي الجديد في العراق أثبتت لنا أن ما حدث ليس إلا رضيعا لا يصلح لغير بيت الأموات التي فاح نتنها حتى أزكمت أنوف اقتصاديات العالم بعد أن استشكل على العقول العراقية عد موتاهم. ومع إقرار زعماء التبشير بعسر المخاض وباستحالة مغادرة الجنين غرفة الإنعاش فإنهم استمسكوا بعراه الواهية حتى جاءت أمطار الصيف لتئد الدجال الديمقراطي وتعود به إلى النقطة الصفر وتريح أنصاره حتى من لذة الحلم.

في مطلع تسعينات القرن المنصرم اقترحت ثلة من النيوكنزيين الأمريكيين ودعاة التحديث على إدارة بوشهم الأب ما بات يعرف بسياسة الفوضى البناءة، والمقصود بها تغيير العالم على نحو يجعل من أمريكا قوته العظمى الأبدية. ومن أجل ذلك وضع وولفوفيتز ونظراؤه من الصقور في السياسة الأمريكية خطوات عملية لهذه السياسة يأتي على رأسها احتلال العراق. وقد جاء زلزال الحادي عشر من سبتمبر على غير ميعاد ليعجل بقرار إسقاط النظام البعثي في العراق ويستحدث أسلوبا جديدا في التغيير والإصلاح تم بموجبه استبدال المعارضة الداخلية بالعمل الخارجي لقلب أنظمة الحكم وإلباس الاحتلال لبوس التحرير والإصلاح السياسي الموعود.

سقطت كابول ثم بغداد والعالم الثالث يراقب ويراجع سياساته الداخلية ويعقد المؤتمر الإصلاحي تلو الآخر ومقولة حلق الرؤوس عن طيب خاطر قبل أن تحلق صاغرة تقض مضاجع الحكام وتفسد عليهم حتى نعمة الاستمتاع بحلاوة كراسي الحكم. وغدا التواجد العسكري الأمريكي والأجنبي في دول الخليج العربي والشرق الأوسط أمرا اعتياديا لا بل إنه ضمانة للأمن والاستقرار لدى كثير من دول هذه المنطقة.

أفغانستان والعراق من الدول المارقة التي يجب إخضاعها بالقوة لنواميس النظام العالمي الجديد على أن تكون تلك مقدمة لدول أخرى مارقة انخرطت ضمن محاور شر بالتعبير الأمريكي تهدد المشروع الديمقراطي الذي يروم قادة العالم الجدد تعميمه على العالم كله.

لكن السنوات الخمس الأولى لم تنجز من وعود الديمقراطية غير الشعارات والخطب السياسية، فالقوات الحكومية الأفغانية مدعومة بالقوات الأمريكية والبريطانية لم تستطع حتى الآن أن تسيطر على الأقاليم الأفغانية ولا أن ترسخ التجربة الديمقراطية غير تلك الصور النمطية عن السهرات المختلطة في مقاهي العاصمة كابول بعد أن كانت المرأة مطمورة بحكم قانون طالبان. أما العراق فلا تكاد ترى لحكومته المعينة أو المنتخبة حتى أثرا إلا في المنطقة الخضراء أما باقي نواحي العراق فمسرح لحروب بعضها طائفي عرقي مقيت وبعضها الآخر إجرامي ثأري وأغلبها وطني تحرري يأبى أن يكون رقعة أو حجرة في لعبة شطرنج بل يسعى أن يكون لاعبا أساسيا.

كان شعار إشاعة الديمقراطية والإطاحة بالأنظمة الدكتاتورية الفاسدة مطلبا شعبيا داعب أخيلة أغلب الشعوب العربية التي أضناها الظلم وأقعدها الاستبداد والقمع عن المساهمة في أن تكون طرفا فاعلا في إدارة حوار حضاري فاعل ومتجدد. رصد القائمون على هذه المشاريع مبالغ ضخمة توزعت على مختلف نواحي الفعل في الحياة من مراكز البحوث حتى معاهد التدريس مرورا بوسائل الإعلام وصولا إلى الحكومات وأروقة صناعة القرار في عالمنا العربي. وقد أسهمت حالة انسداد آفاق الحوار السياسي الداخلي وتعثر حركة الإصلاح الوطني المستقل في عالمنا العربي في تضييق الخيارات السياسية، إذ غدا التصنيف إما أنك مع التغيير والحلم الديمقراطي الموعود أو مع أنظمة التكلس والفساد والاستبداد، وهما خياران أصبح الجمع بينهما صعبا بحكم دخول العامل الخارجي على الخط.

يوم أجبرت قرارات الأمم المتحدة القوات السورية على الخروج عنوة من لبنان، بعد أن كانت القوات الإسرائيلية قد أخلت الجنوب اللبناني تحت نيران البنادق والكاتيوشا، ارتفعت الرايات البرتقالية في مختلف الساحات العامة في بيروت، وكتب بعضهم عن عودة للزمن الأول من بيروت المتعددة المذاهب والأفكار والتوجهات، وبشر آخرون بميلاد عهد ديمقراطي جديد يسقط فيه إميل لحود المنصب ليختار الشعب رئيسه من جديد. مضت الأيام مسرعة تطوي معها الأحلام على وقع عودة الاغتيال السياسي الذي طال رجالا أسهموا في إنهاء الحرب الطائفية وبناء لبنان الحديث، فدخل القادة القدامى والجدد في دوامة من الصراعات مع قوى موهومة المستفيد الأول والأخير منها الطرف المتربص بلبنان وأهله والخاسر الأكبر فيها الحلم الديمقراطي البرتقالي الذي غنى للحرية ولإرادة الشعوب وحقها في اختيار حكامها.

إن جوهر الديمقراطية هو احترام حقوق الإنسان وتشريف آدميته، وهو ما يتنافى مع منطق السجون والاستبعاد والعزل من أجل التعبير الحر عما يجيش في أعماق هذا الكيان البشري. ويوم أن أقدمت قوات حزب الله في لبنان على أسر جنديين إسرائيليين قامت دنيا الشرق الأوسط ولم تقعد بعد، وهكذا زج بالمنطقة في أتون حرب بالوكالة لا أحد يعرف نهايتها. ويوم أن طالب حزب الله بإطلاق سراح أسراه اعتبر ذلك مصادرة على المطلوب وذريعة لنقض سلام أجبر عليه الفرقاء بمن فيهم إسرائيل.

الغرب ليس دمويا بالسليقة إذا سلمنا بالإزدواجية التي فطر عليها الإنسان، إلا أن هذا الغرب وخصوصا السياسي منه قد أدمن بحكم انخرام الكفة لصالحه على التعاطي مع هذه الشعوب من موقع السيد المدبر. ولا أحسب أن ثمة رغبة غريزية لدى نخبه الفكرية على الأقل في امتصاص أرزاق هؤلاء الأبرياء من شعوب وجماهير محكومة بقانون الغلبة والجبر على الدوام. فالحكم العربي تيوقراطي محكوم بسلطة الفرد سواء في غياب الإسلام أو في حضوره، وحتى لا أتجنى على الحقيقة فإنني أستثني من ذلك العصور الذهبية للحكم الإسلامي التي استمرت زهاء الثلاثة قرون. كما أن الديمقراطية لا تمر حتما عبر احتلال الشعوب وزرع الألغام المذهبية والطائفية ونبش قبور نوم القادسية التي كنا نعيبها على حزب البعث الحاكم آنفا من أجل استئناف الحروب العرقية والدينية باسم الديمقراطية.

ترى ما هو الفرق بين الإنسان الشيعي في العراق الذي يعمل جنبا إلى جنب مع السفير الأمريكي زلماي خليل زادة أحد أبرز مناصري نظرية التفوق الأمريكي وصناع ما يعرف بوثيقة «الإرشاد الدفاعي الأمريكي» التي أعقبت انهيار الإتحاد السوفييتي وبين السيد حسن نصر الله ورفاقه في لبنان وهم يضربون المصالح الأمريكية في العمق؟ ما الذي جعل من السيد عبد العزيز الحكيم محاورا نجيبا يتكلم باسم أمريكا وجعل من السيد نصر الله مقاتلا عنيدا وحاملا راية معركة الأمة ضد الأمريكيين وحلفائهم الإسرائيليين؟ هل هذه هي معالم الفوضى البناءة أم إرهاصات ما بعد الديمقراطية والدخول فعلا في عصر تناطح الثوري ـ الحضاري ولا أقصد بملفظ الثوري الثورات وإنما أشير إلى ذكر البقر وارتكاس الحضارة إلى ما قبل تاريخ الإجتماع البشري.

هل يعد أسر الجنود الإسرائيليين وإغراق الجنود الأمريكيين في الوحل الأفغاني والعراقي بهبة رياح إعادة العزة للأمة أم أن ذلك ليس إلا مغامرة غير محسوبة أوحت بها مصالح قطرية وظروف مستجدة في المنطقة فرضت على الفرقاء خوض حرب بالوكالة رغم أن نيرانها ستحرق أصابع الجميع والعربية منها خاصة ولن يسلم منها ما يعرف بـ: Stiky Finger وأقصد بها الأيدي الخارجية. وهل يمهد صراع الأضداد المتطرفة الطريق لحوار العقلانيين الوسطيين دعاة الحوار والمراكنة من أبناء الحضارات المختلفة لصياغة ميثاق عالمي جديد يمنع الظلم بين الدول؟ أين روسيا والصين من كل ما يجري؟ وأين دول أوروبا الديمقراطية المتحضرة من سياسة العقاب الجماعي التي أسست للحرب العالمية الثانية وقتلت مئات الآلاف من الأرواح؟ لماذا عجزت قمة الدول الثماني في الاتحاد السوفييتي المنهار عن إصدار بيان شديد اللهجة يوقف إطلاق النار في لبنان ويؤسس للحوار بين حزب الله وإسرائيل؟ أم أن هؤلاء جميعا لم يعد لديهم من سلطة سوى الدعوة إلى ضبط النفس أمام الرفاق!

الجدير بالذكر أن سياسة تعزيز الفشل العسكري التي طالما مارستها القوات الإسرائيلية خصوصا والمنتصرة عموما في قتالها مع الفلسطينيين والعرب بوجه عام لا تخدم مصالح السلام الإسرائيلي فضلا عن السلم الدولي الذي تسعى الولايات المتحدة الأمريكية مدعومة بمجلس الأمن ومنظمة الأمم المتحدة لتأسيسه، فمن مخاطر العمل بهذه السياسة القائمة على معطى القوة المادية الآنية هو فقدان التصور الحقيقي لكنه أسباب فشل التأسيس لتجربة ديمقراطية واعدة تمهد للأمن والرفاه والتكامل بين الحضارات.

ويمثل غزو لبنان والأراضي الفلسطينية وصب مزيد من الزيت على نار الفتنة في العراق وحالة الاحتقان التي وصل إليها مشروع التغيير السلمي في العالم العربي، كل ذلك يمثل نهاية مشروع الإصلاح الديمقراطي الذي يحق لثقات المثقفين في الغرب والعالم العربي نعيه.

فيوم أن أقدم مناحيم بيغن في كامب ديفيد على توقيع اتفاقية السلام مع مصر لم يكن ذلك إرضاء لأمريكا وحدها ولا رضوخا لإفرازات الحرب التي بددت أسطورة الجيش الذي لا يغلب، وإنما كان القائد الإسرائيلي واقعيا يفهم ما معنى تحييد مصر العربية وإقصاء الجيش العربي المصري من دائرة الصراع معرفة الجراح لموقع القلب من الجسد العربي، مثلما كان يعرف مخططو إسقاط بغداد معنى احتلال العراق التي واجه زعيمها الثورة الإسلامية يوم أن قرر القضاء عليها في المهد نيابة عن أعدائها المتربصين في الغرب والشرق، أقول كانوا يدركون أن إسقاط العراق هو بوابة للاستفراد بلبنان وسورية وإحكام السيطرة على ما تبقى من مناطق مارقة في الشرق الأوسط، لكن ما كل ما يتمناه القوي يدركه تجري رياح الشرق بما لا تشتهي رغبات الغرب حتى وإن سادت إلى حين.

* كاتب وإعلامي من تونس يقيم في بريطانيا

كاوبوفوبيا!

زهير اندراوس*

■ ولاية تكساس الأمريكية مشهورة أكثر من غيرها بأعمال الإجرام والقتل والشذوذ على جميع أنواعه المحلية والمستوردة، وعليه فإننا نعتقد أن إقامة الرئيس الأمريكي جورج بوش في هذه الولاية لها مدلولات كبيرة تعكس شخصية هذا الإنسان الذي بات يعاني من مرض مزمن وهو «العرب فوبيا» او «الإسلام فوبيا». فرغم مرور حوالي ست سنوات على هجمات 11 سبتمبر(أيلول) فإن نوبة الخوف من الإسلام تنتشر في أوروبا والولايات المتحدة انتشار النار في الهشيم، وأصبح ذكر الإسلام والمسلمين مقترناً إلى حد بعيد بمصطلحات من قبيل الإرهاب والعنف وما شاكلهما. وأخطر الادعاءات وأكثرها انتشارا في أيامنا هذه داخل المجتمع الغربي هي أن الإسلام والديمقراطية لا يلتقيان، وهو ادعاء يتكرر باستمرار.

على أية حال، السيد بوش، الذي أصبح اكبر تهديد على الأمن العالمي بسبب رعونته وإيمانه العميق بان القوة المفرطة ستدحر الشعوب المستضعفة والتواقة للحرية والعدالة والسلام، اختار في نهاية الأسبوع الماضي أن يخرج إلى إجازته في مزرعة كورفورد في تكساس، الأمر الذي يقطع الشك باليقين بان الرجل لا يهتم بالقتل والدمار في لبنان وفلسطين وإسرائيل. هكذا يتصرف الكاوبوي الأمريكي التقليدي، وبوش هو الكاوبوي (راعي البقر) النمطي. فالقتل بالنسبة له هو أمر اعتيادي، والدمار والتدمير لا يقلقانه بالمرة، لأنه تربى وترعرع في مزرعة بقر، مع الاحترام لجميع الحيوانات، ووصل إلى البيت الأبيض، وهو أمر عادي في «بلد الحريات»، فالرئيس الأسبق رونالد ريغان، تحول من ممثل سينمائي فاشل إلى رئيس أمريكي، وكانت مواقفه من الصراع العربي الإسرائيلي متطابقة تماما مع مواقف جورج بوش واليمين المسيحي المحافظ وعصابة المحافظين الجدد الذين ما زالوا يتمسكون بأكاذيبهم القديمة.

يوم الاثنين من هذا الأسبوع عقد الرئيس الأمريكي في مزرعته مؤتمرا صحافيا مع وزيرة الخارجية السيدة كوندوليسا رايس، وأطلق عبارات نابية ضد العرب والمسلمين، ونقلت أقواله ببث حي ومباشر. اللافت انه للمرة الأولى استعمل مصطلحا جديدا يدل على عمق الحقد والكراهية الدفينين للإسلام والمسلمين: «الإسلام الفاشي»، قال رئيس اكبر دولة في العالم. هذا التصريح يعكس تأصل عقدة الخوف من العرب والمسلمين، ولكنه بموازاة ذلك يعبر من حيث لا يدري السيد الرئيس من خلال استعماله لهذا المصطلح عن إخفاقات سياساته في العراق وفلسطين ولبنان. هذه الإخفاقات التي تحققت بفعل المقاومة الإسلامية والوطنية في العالم العربي، وليس بفضل بطولات الحكام العرب.

الأمر غير المثير للدهشة والاستغراب هو ردود الفعل العربية والإسلامية على قاذورات بوش التي تنضح بالعنصرية، بالإضافة إلى انه يتعامل مع هذه الأمة من منطلق فوقيته ودونية العرب والمسلمين. بطبيعة الحال، استنكف الرؤساء والملوك والسلاطين العرب عن الرد على هذا التفوه، والتزموا كعادتهم الصمت. هؤلاء الزعماء فقدوا الحد الأدنى من الكرامة والشهامة والعزة والكبرياء، ولا يمكن أن يعول عليهم، فهم رهائن البيت الأبيض ويعملون علانية على تنفيذ خطة «سايكس بيكو» الجديدة من تخطيط وإخراج الإدارة الأمريكية، أو ما تسميه السيدة رايس الشرق الأوسط الجديد. ولكن ماذا مع الشعوب العربية؟ ما هو السبب الذي يمنع الشعوب من المحيط إلى الخليج من التظاهر والتعبير عن استيائها وامتعاضها الشديدين من هذه الأقوال الهادفة إلى تحقير العرب والمسلمين.

الحالة العربية هي حالة استثنائية في التاريخ المعاصر، لا توجد أعذار لتبرير مسألة اللا مبالاة التي تسيطر على هذه الشعوب، فالمقاومة اللبنانية كشفت جميع الأوراق وعرّت الزعماء العرب والشعوب العربية على حد سواء. ولكننا نلاحظ أن العرب تغيروا أيضاً لأن الأيام التي كان يلجأ فيها الجندي العربي إلى خلع حذائه، والتخلص من سلاحه، والفرار إلى أقرب بر للأمان، ورفع الراية البيضاء اختفت أيضاً، وأصبحت من التراث، تراث الأنظمة، الثورية سابقاً، والعقلانية حالياً.

والشيء بالشيء يذكر: فاروق القدومي، وزير خارجية فلسطين يؤمن بان حق العودة أهم بكثير من إقامة الدولة الفلسطينية، وهذا يقودنا إلى السؤال المفصلي: ماذا على الشعوب العربية أن تعمل أولاً: التخلص من الحكام الذين يقمعونهم بشدة أم محاربة إسرائيل؟

نعتقد انه من الضرورة بمكان أن نؤكد أننا ضد الطرح القائل بأنه يجب محو إسرائيل عن الخارطة، فمن حق هذه الدولة أن تعيش، وبالتالي نؤمن انه آن الأوان لكي تتحرك الشعوب العربية وتعلن الثورة على الحكام، والادعاء أن هذه الأنظمة الفاسدة هي ديكتاتورية وستقمع بالحديد وبالنار أية محاولة لقلب هذا النظام أو ذاك هي ليست صحيحة. فعلى سبيل الذكر لا الحصر قبل الثورة الإسلامية في إيران كان الشاه يحكم البلاد ويبطش بالمعارضين، مؤمناً أن الدعم الأمريكي سيحافظ على عرشه، ولكن عندما وصل السيل الزبى وطفح الكيل إنتفض الشعب الإيراني وتمكن بعد نضال مرير من السيطرة على مقاليد الحكم، وطرد الطاغية من البلاد، هذا الانجاز تحقق بفعل عوامل عديدة لا مجال للخوض فيها الآن، ولكن أهمها كان إرادة الشعب في التغيير والتخلص من حكم الشاه المعادي لأمته والموالي لأمريكا وربيبتها إسرائيل.

إلى الزعماء العرب نقول: لا نريد منكم أن تتصرفوا كالرئيس الفنزويلي هوغو شافيز، الذي سحب سفير بلاده من تل أبيب احتجاجاً على العدوان البربري على لبنان، وللشعوب العربية نوجه نداءً حاراً: سقط القناع عن الأنظمة العربية المتواطئة مع أمريكا ومع إسرائيل، فماذا تنتظرون؟ ما الذي يمنعكم من العمل الدؤوب على قلب أنظمة الحكم الشمولية، انتفضوا...انتفضوا، كي لا تندموا حين لا ينفع الندم.

ملاحظة: في اجتماع وزراء خارجية حظائر سايكس بيكو أجهش رئيس الوزراء اللبناني فؤاد السنيورة بالبكاء.

اولاً: السنيورة هي كلمة إيطالية وترجمتها إلى العربية سيدة.

ثانياً: الزعماء لا يبكون وقوتهم تتجلى في أوقات المحن والأزمات.

ثالثاً: نميل إلى الترجيح بان السنيورة بكى لأنه كان على علم ودراية بحجم المؤامرة العربية الكبرى ضد لبنان بشكل خاص، وضد الأمة العربية بشكل عام.

* رئيس تحرير جريدة «كل العرب» الصادرة في الناصرة

الابرياء والمدنيون يدفعون الثمن

بين الانظمة الفاسدة واسرائيل وحلفائها

سعيد شحاتة*

■ ان المآسي التي تمت في الايام الاخيرة في منطقة الشرق الاوسط لهي دلالة على عنفوان الدولة الاسرائيلية وعدم اكتراثها بالقوانين الدولية. ان الدمار الذي حل بلبنان (شعبها وبنيتها التحتية) لهو مشهد يدمي العين والقلب معا. ومن منطلق العين المحايدة فالقتلى الابرياء الاسرائيليين هو فصل من الفصول المحزنة لتلك القصة غير الانسانية، من الجانب الاخر فان رد الفعل العربي السلبي الساكت يكشف عن فساد معظم تلك الانظمة العربية وعدم اكتراثها بمواطنيها وكرامتهم. لم تعد للمواطن العربي كرامة تذكر بعد تهاون القادة العرب وسلبية المواطنين العرب تجاه انظمتهم غير الديمقراطية.

لا يمكن تبرير الموقف الاسرائيلي تحت اية ذريعة. كيف يمكن تبرير قتل المدنيين اللبنانيين ومعظمهم من الاطفال والنساء؟ كيف يمكن تبرير تدمير البنية التحتية اللبنانية من جسور ومصانع ومنازل مدنيين ومحطات كهرباء ومياه؟ ان تلك الاعمال الوحشية ضد كل القوانين والشرائع الدولية. ولكن مع من تتحدث؟ انها اسرائيل التي تتحدى كل القرارات والقوانين الدولية وتدعي انها واحة الديمقراطية في الشرق الاوسط. ومن العجب ان اسرائيل تقول ان أحد الاسباب للحملة العسكرية هو مساعدة الحكومة اللبنانية على تطبيق قرار مجلس الامن رقم 1559 الخاص بنزع سلاح حزب الله وسيطرة الجيش اللبناني على الجنوب بدلا من حزب الله. وقد انتقد رئيس الحكومة اللبنانية فؤاد السنيورة اسرائيل بالقول ان لبنان لم تطلب مساعدة اسرائيل في تطبيق هذا القرار. ولماذا تصر اسرائيل على تطبيق هذا القرار دون القرارات الاخرى مثل القرارات ارقام 242 و338 والعودة الى حدود ما قبل عام 1967. ان منطق القوة هو الذي يحكم العلاقات الدولية وليس القانون الدولي. فمن يملك القوة يحقق ما يريد بصرف النظر عن مراعاة القوانين الدولية من عدمه. كما ان المساندة غير المشروطة من قبل الولايات المتحدة لاسرائيل تجعل اسرائيل طليقة العنان في ضرب من تريد ضربه دون الخوف من اي عواقب لتلك الاعمال. ان قصة الاسيرين الاسرائيليين هي ذريعة لإرغام الحكومة اللبنانية الضعيفة على تطبيق القرار 1559 الخاص بحزب الله. وكان من الممكن ان تقبل اسرائيل مبادلة الاسيرين بعدد من السجناء العرب في السجون الاسرائيلية. فقد كانت هناك سابقة حيث تمت مبادلة رجل اعمال اسرائيلي بحوالى 400 من العرب. ولكن لماذا تصر اسرائيل تلك المرة على ان